الكاتبة حنان زوهرا

ملاذي الآمن

رواية

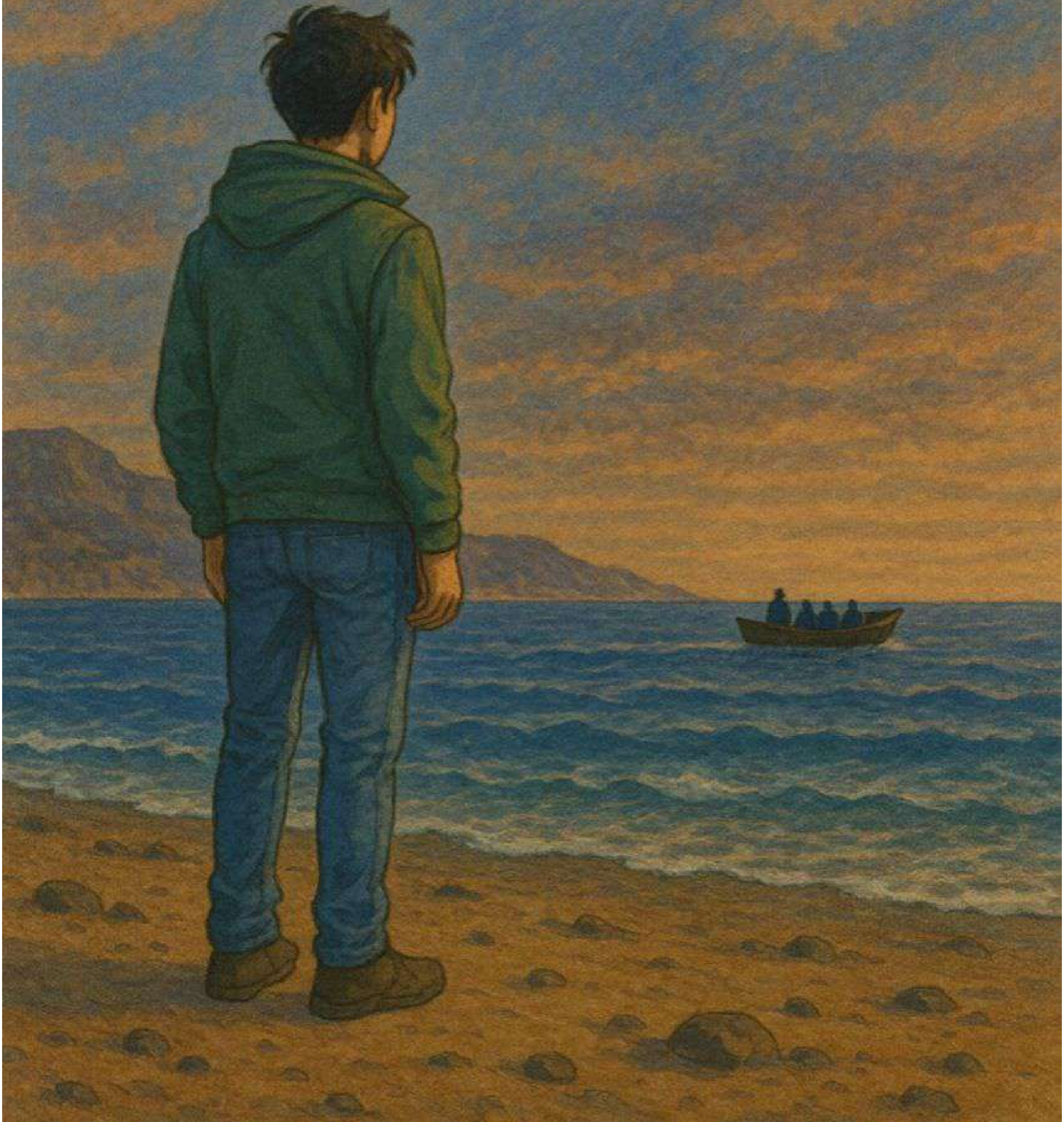

رواية ملاذي الآمن

الكاتبة حنان زوهرا

هذا العمل محمي بموجب قوانين الملكية الفكرية وحقوق الطبع والنشر.

للتواصل مع الكاتبة

HANANZOHRA2000@GMAIL.COM

الإهداء:

إلى حبيبتي أمي ونبض قلبي أخي محمد (حفظهم الله)

إهداء:

"الوطن ليس تلك الرقعة الجغرافية على خريطة ما؛ بل هو أم، أب، عائلة وحب كبير... الوطن هو الذي عندما أنظر لسمائه لا أشعر بأني غريب"

(حنان زوهرا)

كل يوم عندما أنظر إلى الشمس وهي تشرق معلنة بداية يوم جديد وأشعر بنسيم الصباح يلامس وجهي وأجد الحي يعج بالناس كل يذهب لقضاء أعماله، أعلم حينها أن الحياة تعطيني كل يوم سببا لأمضي قدما ولا ألتفت لما مضى ببساطة هذه هي الحياة علينا أن نحياها.

ولدت في مكان مجهول وحتى نسبي مجهول ولكن كل ما أعلمه أن اسمي الذي سماني إياه أبي علي هو كياني والبيت الذي كبرت فيه هو سكينتي، فأنا بعد هذه السنوات أعتبر نفسي من أهل الحي الذي ترعرعت فيه ولم أتذكر يوما أنني غريب إلا نادرا ... عثر عليا بعض المصلون أمام باب المسجد في وقت صلاة الفجر فتكفل بي إمام المسجد السيد علي واعتبرني ابنه وأنا أيضا اعتبرته أبي؛ كان رجلا شهما وقورا... عندما تكفل بي كان في عمر الخمسين كان حنونا جدا ووفي، ذلك لأنه بعد أن ماتت زوجته في بداية زواجهما لم يتزوج بعدها ولهذا لم يكن لديه أبناء فكان دائما يقول أنني هدية من الله له لأؤنس وحدته وبهذا أسماني مراد لأن الأبوة والأمومة أمنية كل إنسان، عشت مع أبي في بيتنا المتواضع بجانب المسجد علمني حب الحياة وحب الخير

للغير كنت سعيدا جدا معه وللأسف لا شيء يدوم إلا وجه الله تعالى، مات أبي عندما كنت أبلغ من العمر عشرين عاما تدمرت حياتي لأن سندي الوحيد في الحياة ذهب وتركني كنت ضائعا لا أعلم ماذا أفعل... ولكنني عندما كنت أجمع أغراضه وجدته قد ترك لي رسالة قال لي فيها جملة واحدة: "إن الحياة قصيرة جدا فبدل أن تعيشها بالتحسر عشها بالأمل والعمل واصنع سعادتك الخاصة بنفسك". مر على وفاة أبي خمس سنوات ولم أنسى يوما الجملة التي تركها لي ولازلت أسكن في البيت الذي تركه فهو البيت الذي عشت فيه طوال حياتي، أبدأ يومي بالصلاة في المسجد المجاور لي وأتجه نحو السوق في الحي الخلفي لأعثر على عمل فمرة أحمل البضائع ومرة أبيع السمك وعندما لا أجد ما أفعله أذهب نحو الشاطئ في مكان بعيد وأبقى أتأمل البحر رفقة شريكتي في القدر الخالة نورية، هي عجوز تبلغ من العمر حوالي الستين تعرفت عليها قبل أربع سنوات أي في السنة الثامنة عشر بعد الألفية، حيث حدثت ضجة كبيرة في تلك السنة بسبب مجموعة من الشباب يبلغ عددهم حوالي ثلاثين شابا ركبوا قوارب الموت واختاروا طريق المجهول وكان أحد أولئك الشباب

ابن الخالة نورية على الرغم من أن السلطات أكدت انقلاب القوارب بحيث وجدوا أغلبية الجثث أما البقية الذين لم يعثروا عليهم رجحت الشرطة أنهم قد رمى بهم البحر إلى شواطئ أخرى أو أماكن مجهولة أو أن البحر ابتلعهم، لأن البحر كان هائجا ذلك اليوم... وبالنسبة للخالة نورية قالت لي: أنها لم ترى جثة ابنها لهذا ستبقى تنتظره إلى الأبد، ولازالت كل يوم تفي بوعدها طيلة الأربع سنوات الماضية، كما أخبرتني الخالة نورية أن زوجها الراحل كان صيادا وكان نعم الزوج لم يدعها يوما تحتاج إلى شيء وأنجبت بنتا وولدا، وتزوجت ابنتها وغادرت مع زوجها إلى ولاية أخرى... أما ابنها مصطفى فكان دائما ناقما متمردا ينظر إلى ما في يد الغير، لهذا اختار المغامرة والذهاب نحو المجهول بحثا عن حياة أفضل ومال أوفر فيا ترى هل حقق فعلا ما أراده؟ أما الآن الخالة نورية تعد المخبوزات التقليدية وتبيعها لتعيل نفسها ولا تمد يدها للغير وبصراحة هي تحضر أفضل خبز منزلي فعلى الأقل فيه رائحة الأم، وأحيانا كثيرة كانت توزع الخبز كصدقة في سبيل الله للأيتام والفقراء وأخبرتني مرة أنها تحب

فعل الخير حتى يعود إلى ابنها مصطفى ويدفع عنه البلاء بإذن الله سبحانه وتعالى.

اليوم الجمعة ويكون السوق في الصباح مكتظا لأنه اليوم الأسبوعي الذي يجتمع فيه الناس قبل موعد صلاة الجمعة والأفضل أنني دائما أرى وجوه التعاون فكل يوم وبخاصة الجمعة تعد النساء الأكل وتوزعه في المسجد فيجتمع الجميع حول تلك المأكولات التي أعدتها النسوة بكل حب أما أنا كل جمعة أتذكر الخالة نورية ودائما آخذ لها حصة من الأكل لأنني أعلم أنها تنسى أن تأكل وهي شاردة تنظر في البحر، ذهبت إليها وجدتها تنظر في البحر اقتربت منها وحييتها: السلام عليكم خالتي نورية لقد أحضرت الغداء إنه كسكس، ردت عليا مبتسمة: أنت دائما تفكر بي يا لك من شاب خلوق.

فقلت لها: والبسمة تعلو وجهي أيعقل أن أنساك؟ هيا لنأكل فأنا جائع، جلسنا في مكاننا المعتاد الذي جهزناه بكرسيين وطاولة صغيرة حتى نأكل فيه أو نشرب القهوة ... نظرت إلي الخالة

نورية نظرة وجع وقالت لي: هل تعلم يا مراد أن اليوم عيد ميلاد ابني مصطفى؟

أجبتها بشغف: أحقا؟ ردت عليا بنعم، اليوم أصبح عمره ستة وعشرون سنة.

رددت عليها بتساؤل بسيط لأغير من نفسيتها: إذن هو أكبر مني بسنتين؟ لكنها ردت وصوتها يتقطع والدموع تملأ عيناها: لقد اشتقت إليه كثيرا...

أجبتها مواسيا أنا متأكد أنه هو أيضا اشتاق إليك ... وفجأة نهضت مسرعا من مكاني وقلت انتظريني يا خالة، قالت: ما بك يا مراد أخبرني؟ لكني ذهبت بسرعة وعدت إلى المنزل أحضرت ورقة وقلم وزجاجة فارغة، وعدت إلى الخالة نورية وقلت لها: ما رأيك أن نهنئ مصطفى بشكل جميل، قالت: وكيف ذلك؟ أجبتها قائلا أخبريني بكل ما تريدين قوله له وسأكتبه في الورقة ونضع الورقة في الزجاجة وارميها في البحر لعلها تصل إليه، قالت لي بحماسة بريئة: نعم، نعم لنفعل هذا !!

وقلت لها: حسنا أخبريني ماذا أكتب قالت لي بكل حب: أخبره أنني أحبه وأريده أن يعود ولن أصرخ عليه لأنه تركني كل هذه السنوات، فسألتها قائلا: وماذا أكتب أيضا؟ لكنها ردت علي: هذا يكفي و... نعم أرسم قلب وأكتب له كل عام وأنت بخير يا مصطفى، كتبت كل ما طلبته مني الخالة وقلت هيا ضعي الورقة في الزجاجة ثم أغلقتها بإحكام ورمتها في البحر، ثم التفتت ونظرت لي وقالت: شكرا لك يا مراد أنا أعلم أنها لن تصل إليه أبدا لكنك أسعدتني، أمسكت يدها وقبلتها وقلت لها بكل أمل أتمنى أن تجتمعي به عما قريب.

مع مرور الأيام كنت دائما أرى الشباب يركبون قوارب الموت ولكن لا أعلم هل هم يهربون من وطنهم أم من أنفسهم، لا أدري بما كنت أفكر ولكنني أيضا قررت ركوب تلك القوارب لأرى ماذا يوجد وراء البحر؟ أخذت كل أموالي التي جمعتها والتقيت بالرجل المسؤول عن تلك العمليات حدد لي موعدا وكان قبل الفجر، كنت أود أن يكون بعد الفجر على الأقل لأصلي صلاتي

الأخيرة في وطني وبين أهلي بكل راحة وطمأنينة، فأنا لا أعلم إن كنت سأصل حيا أم لا.

جهزت نفسي لبست ملابس ثقيلة لأنني لا أعلم كيف سيكون الطقس، وذهبت بإتجاه المكان وجدت معي ثلاثة عشر شابا آخر وفتاتين، استغربت وقلت في نفسي هل الجميع قادهم الفضول مثلي إلى هنا؟ وبعد لحظات أمرنا الرجل بتمزيق هوياتنا فمزق الجميع هوياتهم، إلا أنا وانتبه الرجل لي وقال: لماذا لم تمزق هويتك؟ فقلت له: لقد مزقتها في البيت... لكن في الواقع أنا تركت هويتي في المنزل، أنا أفتخر لأنني أحمل جنسية جزائرية وأعتز بإسمي لهذا من المستحيل أن أنهي كل شيء بهذه البساطة فأنا أعلم أنني سأعود يوما ما، اتجهنا نحو الشاطئ ووجدنا قاربين قسمنا المسؤول إلى قسمين ثمانية أفراد في كل قسم وصعد كل فريق إلى قارب وذهب معنا رجلان كانا المسؤولان عن الرحلة صعدت على متن القارب وأنا خائف... ترى هل سأموت في البحر أم أصل؟ وكلاهما أمر مرعب. بقينا نتخبط في البحر لساعات وكان البحر متقلبا لهذا بدأت الإشاعات بحلول عاصفة... كان وقتا عصيبا وبعد لحظات أخبرنا المسؤول أن أفراد الفريق الآخر قد

غرقوا وأنه لم يستطع التواصل مع المسؤول عبر اللاسلكي وأنا بدأت أعد الثواني وندمت على صعودي إلى القارب.

بعد ساعات قاسية ومرعبة وصلنا إلى الشاطئ الآخر كان شاطئا صخريا وطلب منا المسؤول أن نفترق وكل واحد من الأن وصاعدا مسؤول عن نفسه، بدأت أتجول عبر الطرقات كان كل شيء مختلف اللغة وشكل الناس شكل المحلات بحثت عن مسجد لأصلي لأشكر الله على وصولي لكن لم أجد بحثت طويلا ثم قلت إن كل الأراضي ملك لله فصليت في مكان رأيت أنه طاهر ومناسب.

مر يوم على وصولي إلى إسبانيا لا أملك المال ولا أجيد التحدث بلغتهم وبدأ الجوع يتسلل إلى بطني وما زاد الأمر سوءا كان حالة الطقس حيث كان الجو باردا جدا وفي الليل زاد البرد

وزاد معه الجوع والعطش، نظرت في الأرجاء لعلني أجد مسجدا حتى أشرب منه فلم أجد وتذكرت على الفور مسجد الحي الذي كان لا يغلق أبوابه ونجد في منزل بجانبه قارورات المياه وكذلك التمر حتى يسد كل من يمر بالحي جوعه، اخترت مكانا معزولا وقضيت الليلة هناك وما إن حل الصباح استيقظت وبدأت أتجول بشكل مسالم وفجأة وجدت رجلان يمسكان بي ويضربانني لم أعرف ماذا جرى غير أنني شعرت بألم كبير، وفجأة سمعت أحدا يصرخ من بعيد بلغة أجنبية فهرب الرجال مبتعدين... وتقدم لي الشاب الذي كان يصرخ وساعدني قائلا: هيا انهض، استغربت ونظرت له وأنا أتألم وقلت هل أنت عربي؟ رد قائلا: نعم جزائري الأصل، فرحت كثيرا وقلت له: وأخيرا وجدت عربيا، شكرا لأنك ساعدتني ولم تبقى تنظر فقط، نظر لي و قال : أنا أيضا في أول يوم لي في إسبانيا تعرضت للضرب من قبل بعض قطاع الطرق ولكن لم أجد من يساعدني بقيت أتألم ليومين، لهذا قررت أن أساعد كل من يتعرض للأذى، نظرت إليه بحيرة إذا هل أنت أيضا حراق* مثلي، فضحك وقال: نعم ولكنني الآن مواطن إسباني واسمي ستيفن، سألته بتردد أيعني هذا أنك غيرت اسمك

وجنسيتك؟ رد علي وقال: بالطبع لقد دفعت أموالا كثيرة لأصنع بطاقة هوية مزورة لي والآن دعك مني وأخبرني ما هو إسمك؟ قلت له اسمي مراد فعلق قائلا: اسم جميل ومتى وصلت؟ أخبرته بأنني وصلت قبل يوم ولكنني أشعر بالضياع... قاطعني ستيفن وقال: هذا أمر عادي ولكن لا تقلق بما أنني تعرفت عليك لن أدعك تشعر بالضياع هيا لنأكل أولا لأنني متأكد أنك جائع، نظرت إليه بكل خجل وقلت: بصراحة نعم أنا جائع... أخذني إلى إحدى المطاعم هناك ولكنني سألته إذا ما كان الأكل هنا حلالا، ومن حسن حظي أنه قال لي: لا تقلق إن مالك المطعم مسلم، وهو أنشأ هذا المطعم لإستقبال المسلمين في المنطقة كل ولا تخف وإذا أردت التأكد يمكنك الحديث مع الطباخين لأنهم جميعا يجيدون اللغة العربية، شعرت براحة كبيرة ولهذا أكلت وأنا مطمئن... ثم أخذني ستيف وبدأنا نتجول في المكان وأخبرني بأن أبتعد عن الأماكن التي توجد بها الشرطة حتى لا يمسكوا بي، أخذني ستيف إلى منزله كان بيتا صغيرا جميلا وقال: هيا أدخل ولا تخجل اعتبره بيتك، دخلت وسألته إذا ما كان متزوج فأخبرني أنه لم يتزوج بعد، وبصراحة كان منزله يدل على أنه غني دخلت إلى

الغرفة التي حددها لي وتمددت على السرير لأنني كنت مرهقا جدا، وجلس هو على الكرسي رأيت في وجهه الفضول وسألني أخيرا، إذا يا مراد كيف هي الجزائر؟ أجبته بخير كما نحن دائما نحب الغير ونساعد بعضنا، فقال: نعم وهذا ما لن تجده هنا، أتعلم يا مراد على الرغم من أن المكان هنا يبدو لك جيدا وتظن بأنك حر... ولكن في الواقع هو عالم أسود يكثر فيه الشر القوي يأكل الضعيف لا مراعاة لإنسانية أو أخوة، تفاجئت من حديث ستيف فعلى الرغم من أنه منذ سنوات في إسبانيا إلا أن رجولته وشهامته بقيت جزائرية أصيلة، وقلت له بكل فخر: أتعلم يا ستيف أنا متأكد من أن أهلك قد ربوك جيدا لهذا أنت انسان صالح، ابتسم ابتسامة خفيفة وقال لي: نعم لقد ربوني جيدا لكنني لطالما كنت متمردا... فغادرتهم بدون أن أخبرهم وهذا ما أندم عليه كثيرا، ثم سألته عما إذا كان يرغب بالعودة يوما ما؟ ولكن إتصال مفاجئ قطع حديثنا.

غادر ستيف الغرفة وعاد بعد حوالي خمس دقائق وقال لي: بأنه توجد حفلة مساءا وأنني مدعو إليها ولكنه طلب مني أن أنام قليلا حتى أرتاح، استغربت كثيرا وما إن حاولت النوم بعدما غادر

ستيف المنزل بدأت أفكار مرعبة تخطر على بالي، هل يعقل بأنه من تجار البشر أو أنه مهرب ممنوعات وأسلحة... كاد الخوف ينال مني لكن النوم أخذني فبعد تلك الرحلة المتعبة التي مررت بها كان لابد لي من الراحة، وبعد ساعات استيقظت على وقع دق الباب نهضت مسرعا وقلت من: فرد الطارق أنا ستيف من سيكون غيري؟ فتحت الباب بحذر وقلت له: ماذا جرى لما تطرق على الباب؟ فرد قائلا: لقد نسيت المفتاح لهذا طرقت الباب، دخل ستيف إلى المنزل وسألني هل كنت نائما؟ هيا استعد لنذهب إلى الحفلة يمكنك ارتداء أي قطعة من ملابسي تعجبك، قلت وأنا أفرك عيناي: وكم الساعة؟ لقد نمت كثيرا ولم أشعر بالوقت، رد علي: إنها الثامنة مساءا ومن الطبيعي أن تنام حتى هذا الوقت لأنك متعب، هيا الآن غير ملابسك ولنذهب... اتجهت نحو الخزانة وجدتها مليئة بالملابس اخترت ما يناسبني قميصا أزرق وسروال جينز ورتبت شعري قليلا، ولكن خوفي من ستيف لم يفارقني قال ستيف مبتسما: أنظر كم أنت جميل.

خرجنا من المنزل وصعدنا على متن السيارة ظل الصمت يسود المكان إلى أن قال لي ستيف بنبرة جادة: ما بك لا تبدو على طبيعتك؟ هل حدث شيء؟ حاولت تجاهل الأمر وقلت: كلا لا يوجد شيء... مضينا بالسيارة وإذ بنا توقفنا بجانب المطعم الذي تناولنا فيه الغداء بالصباح فقلت له هذا نفس المطعم أليس كذلك؟ قال: نعم، والآن لندخل وجدت المطعم مليء بالشباب فنظروا الي وألقوا التحية بكل رحابة صدر فقال أحدهم: تعال لأحضنك لأن رائحة الوطن لازالت ملتصقة بك، بدا على وجهي الحيرة... فقال الآخر: هيا ابتعد عنه يا زيد لقد أخفت الفتى، ثم عرفني بنفسه قائلا: مرحبا يا مراد أنا أحمد وأنا وجميع الشباب هنا هاجرنا منذ سنين ولكن ستيف قام بجمعنا في هذا المكان، صعقت للأمر وزاد خوفي إذ خطر على بالي بأنهم جميعا يشكلون منظمة إجرامية ثم نظرت إلى المائدة وجدتها مليئة بالمأكولات الجزائرية الطازجة، فقال ستيف: هيا يا شباب لنجلس فأنا جائع وأعتقد أنكم تعرفتم على مراد الذي أقمنا هذه الحفلة من أجله اليوم فمرحبا بك يا مراد، رحب الجميع بي بشكل جميل وبدأنا نأكل وبعد العشاء حضر لنا أحد الشباب الشاي الصحراوي وجلسنا نتسامر، أخبرنا

زيد بأنه رزق بفتاة مساء أمس وأنه متحمس لكونه أصبح أبا، وأخبرنا آخر أنه تقدم لخطبة فتاة ووافق أهلها، كان للجميع أحلام وطموحات... فقلت وماذا تعملون هنا؟ فقال أحمد: نحن جميعا نعمل عند صاحب المطعم فهو الذي أمن لنا الحياة الكريمة في بلاد الأغراب، فقلت: وأين هو صاحب المطعم؟ لابد أنه رجل شهم فقام ستيف بالتلويح لي قائلا: أنا أمامك استغربت وقلت: أحقا أنت صاحب هذا المطعم؟ قال: نعم، ثم قال لي بنبرة جادة أنظر يا مراد إن الحياة بعد الهجرة تكون صعبة جدا إذا لم تجد من يساعدك فسيكون مصيرك إما السجن بعد أن تصبح مجرما أو الموت نتيجة الجوع والمرض، ولهذا قررت أن أساعد جميع المهاجرين مهما كانت جنسياتهم وخاصة الجزائريين والحمد الله أنا أفعل كل ما بوسعي... بعد تلك الساعات الرائعة التي قضيتها مع الشباب اتصل أحدهم بمراد وقال له: بأن صديقهم رامز قد تعرض لحادث سير ومات وقامت السلطات بدفنه لأنه بدون أهل تأسف الجميع وشعروا بالحزن ولكنني قلت: أيعني هذا أنهم لم يقيموا له صلاة الجنازة كيف هذا؟ وأيعقل أن نسمح بهذا؟ لنذهب إلى المقبرة ونصلي عليه جميعا... وافق الجميع بكل ثقة ومضينا نحو المقبرة

كان الجو كئيبا جدا ومظلما لكننا أضأنا المكان بتلاوات خاشعة لبعض الآيات وقرأنا الفاتحة على روح أخينا، ولاحقا قام الجميع بشكري لكنني قلت لهم: بأنني لم أفعل سوى واجبي اتجاه أخ مسلم.

بعد لحظات بدأ الجميع بالمغادرة وقاموا بتوديعي ومضى كل بطريقه، وغادرنا أنا و ستيف المكان وأثناء الطريق توقفت السيارة لأن البنزين قد نفذ، فترجلنا وقال ستيف: كان يوما جميلا بصحبتك، وبتردد أخبرت ستيف بحقيقة أفكاري حوله قائلا: أنظر يا ستيف أنا أعتذر منك، فقال لي بإستغراب: ولما تعتذر؟ أجبته قائلا: لأنني شككت في حسن نيتك وظننت بأنك مجرم.... ضحك ستيف من كل قلبه ونظر لي وقال: وما أدراك؟ فربما أنا مجرم دولي خطير وأتنكر بهيئة رجل مسالم ولكنني... قاطعته قائلا: ومع ذلك فقد تأكدت من طيبة قلبك، فبعد تعرفي على كل الشباب الذين ساعدتهم أنا متأكد بأنك إنسان نبيل، نظر لي وقال: ومع ذلك يا مراد لا تثق بأي أحد مهما جرى حتى لا تنصدم فيما بعد إذا حدث موقف ما، قلت له: حسنا يا أخي العزيز، فرد عليا: وأنا أيضا أعتبرك أخي يا مراد، والآن أخبرني كيف كانت حياتك في

الجزائر؟ وهل لك أهل؟ رددت عليه قائلا: بصراحة أنا عشت عند رجل قام بتربيتي وبعد رحيله فقدت أهلي وسندي، وكانت حياتي عادية بين العمل والمنزل وصحيح كان لدي شريكتي التي كنت أمضي أغلب الوقت معها إنها الخالة... وفجأة !!صرخ ستيف: هيا أركض يا مراد فالشرطة خلفنا، بدأنا نركض في الشارع كالأطفال الصغار إلى أن ابتعدنا عنهم وكادت أنفاسنا تنقطع من شدة الركض لهذا جلسنا على قارعة الطريق حتى نرتاح، وقلت له: أتعلم يا ستيف من السيء أن تموت في مكان مجهول بعيدا عن أهلك... وافقني ستيف وقال: معك حق وهذا ما أنا خائف منه أن تكون نهايتي سيئة، وأن أدفن في مكان غريب عني... فقلت له بتردد: إذن ما رأيك أن تعود إلى الوطن أنا متأكد بأن أهلك ينتظرونك، وأنك اشتقت لهم كثيرا... نظر ستيف إلي وقال: ماذا عنك؟ فقلت: أنا بالنسبة لي يكفيني ما عشته في هذه البلاد أتمنى أن أغمض عيناي وأفتحهم لأجد نفسي في بيتي، فقال ستيف: هيا لنعد إلى المنزل لقد تعبت كثيرا اليوم.

وبعد ليلة هادئة حل الصباح واستيقظت باكرا وحضرت الفطور كتعبير شكر على ما فعله معي ستيف ذهبت إلى غرفته وحاولت

إيقاظه ولكن كل محاولاتي باءت بالفشل فنومه عميق جدا، كم هو كسول وبعد صراخ طويل استيقظ.. وطلبت منه أن يتناول فطوره فبدأ بشرب القهوة وفجأة نظر إلي وقال: إذن يا مراد هل أنت جاد بشأن موضوع أمس؟ قلت بحيرة: موضوع ماذا؟ فرد علي وهو يحتسي قهوته: موضوع العودة إلى الوطن أترغب حقا بالعودة؟ فقلت: نعم ولكنني خائف من البحر، فقال وهو ينظر إلي: حسنا ستعود إلى أرض الوطن على متن طائرة في درجة رجال الأعمال، لم أصدق ما سمعته وقلت له: أتمزح معي؟ لا أملك هوية... فقال أمر الهوية سهل، نظرت إليه وقلت: وماذا عنك قال لي: أنا خائف من أن أعود ولا أجد أحدا ينتظرني في المنزل، فآخر مرة رأيت أهلي كانوا سعداء لهذا كلما أتذكرهم أقول بأنهم سعداء كما تركتهم، ولهذا أخاف أن يكون كل ما واسيت به نفسي طوال سنوات مجرد وهم، فقلت له مطمئنا: ومع ذلك يا ستيف من الأفضل أن تجعل ذلك الخيال حقيقة وعد لأهلك وإن شاء الله لن تجد إلا خيرا.

نظر إلي ستيف قليلا ولكنه اكتفى بالصمت وبعدما أنهينا الإفطار قمت بترتيب المكان وكان ستيف في غرفته ثم جاء نحوي

مسرعا، هيا يا مراد استعد سنذهب إلى المصور قلت بإستغراب المصور ولماذا؟ رد ستيف بعجالة: لأصنع لك هوية مزورة، فهذه الطريقة الوحيدة للعودة إلى الوطن... وبدون تردد قلت: حسنا.

ذهبنا إلى مكان مرعب ومعزول كانت الاحياء هناك تشبه أحياء العصابات في الأعمال الأمريكية، وتوجهنا إلى إحدى المنازل هناك وطرق ستيف الباب ففتح لنا رجل ضخم البنية أصلع الرأس، ورحب بستيف وألقى عليا التحية ولكنني لم أفهم شيئا لأنه يتحدث باللغة الإسبانية... طلب مني ستيف الدخول ومن ثم طلب مني الجلوس على كرسي وقام الرجل بتصويري وتحدث إلى ستيف مطولا وأنا اكتفيت بمراقبتهم فقط ونظرت أخيرا إلى ستيف وقلت: ماذا جرى؟ قال لي مطمئنا: لا تقلق لقد رتبنا لك كل شيء من الآن أنت توماس من فرنسا وأكمل ستيف حديثه مستفسرا: أخبرني يا مراد هل تتحدث الفرنسية؟ قلت له: قليلا فقط، مثل كل الجزائريين في الشمال، ابتسم ستيف وقال لي: أنا سعيد من أجلك لأنك قررت اتخاذ هذه الخطوة... وبعد ساعة أعطاني الرجل الهوية الجديدة وغادرنا المكان، وعند وصولنا إلى البيت قال ستيف: أتعلم يا مراد من أين لي كل هذه الأموال؟ فقلت له بتوتر:

بصراحة هذا أكثر شيء أنا فضولي حوله... رد عليا وهو يتذكر الماضي وقال: بعد أسبوع من قدومي إلى إسبانيا كنت متشردا وجائعا وبينما أنا في إحدى الطرقات رأيت بعض الشباب يتجاوزون الحدود مع فتاة ما وبسرعة قمت بمساعدتها بلا تردد، وتعرضت حينها لضرب مبرح من أولئك الشباب... ولم أشعر بشيء إلا وأنا في سرير المشفى وبجانبي الفتاة ورجل عجوز، وقلت بصوت متقطع: أين أنا؟ فقال العجوز: إذا أنت عربي، عرفت أن تلك الشهامة نابعة من عرق طيب... فنظرت له باستغراب فقال لي: لا داعي للخوف ولا للإستغراب أنا رجل الأعمال معتصم من الأردن وهذه ابنتي إيلا، ونحن نشكرك كثيرا لمساعدتك لإبنتي ولا تقلق كل تكاليف المشفى مدفوعة.

وبعد يوم غادرت المشفى ولكن أثناء وقوفي على قارعة الطريق وجدت السيد معتصم يلوح لي وهو في سيارته، فذهبت إليه وقال لي: بأنه منذ مدة لم يرى شابا شهما ورأى بأنني سأكون أهلا للثقة في تولي بعض أعماله، وأنا وافقت على الفور فصنع لي هوية جديدة وبدأت بالعمل معه كان لديه العديد من العقارات والشركات... وبعد سنتين أصبح يعتبرني ابنا له وعندما اقترب

موعد وفاته ترك لي بعضا من ميراثه لأتمكن من العيش بكرامة أحيانا كثيرة أعتقد أن أعمال الخير التي كانت تقوم بها والدتي عادت لي بهذا الشكل وكأنه العوض من الله سبحانه وتعالى.... وأكمل قائلا: أنا حقا ممتن للعم معتصم جدا ولهذا قررت أنا أيضا بأن أساعد الشباب لأنني في يوما ما كنت بحاجة إلى المساعدة، فلا بد أن تعطي مما أعطاك الله أليس كذلك؟ قلت له بكل ثقة: بلى معك حق كما أنني سعيد حقا من أجلك لأنك وجدت من يساعدك وأنا أيضا أشكرك لأنك ساعدتني، وسألته قائلا: وماذا عن ابنته إيلا؟ ابتسم وقال لي: لقد أصبحت إيلا الآن أما لطفلين، كنت أزورها في بعض الأحيان ولكنها غادرت البلاد منذ فترة... وأثناء حديثنا جهز لي ستيف حقيبة بها ملابس لي وأخذت جوازي الجديد وهويتي ومضينا في طريقنا نحو المطار...

طوال الطريق بقينا نتحدث أنا وستيف ونضحك.... لأول مرة جربت كيف هو شعور أن تملك أخا لم نشعر بالوقت إلى أن وصلنا إلى المطار نزلت من السيارة ونزل معي ستيف قام بمعانقتي وقال لي: إياك أن تقدم على أي قرار متهور في المرة القادمة، ابتسمت

وقلت له: وأنت أيضا لازالت الفرصة أمامك لتعود إلى الوطن... فقال لي مازحا: ربما سآتي يوما ما وحينها سأكون ضيفا ثقيلا عليك، قلت له وأنا أبتسم: لن تكون ضيفا بل أخا كبيرا لي، واتجهت داخل المطار ولم أعرف ما أفعل فقام بعض رجال الأمن بمساعدتي للذهاب نحو نقطة التفتيش، فرأوا ما في حقيبتي و نظروا إلى الجواز والهوية وكنت خائفا جدا لكن الحمد الله مضى الأمر على خير ولأول مرة في حياتي أصعد على متن طائرة... وجدت العديد من الجزائريين هناك ثم أدركت بأن هذا أمر طبيعي لأن الطائرة متجهة أساسا نحو الجزائر، جلست في مقعدي المجاور للنافذة وبقيت أنظر من عليها و أنا أقول في نفسي: يا لها من تجربة غريبة وكأنني في حلم ولكن وأخيرا سأعود إلى وطني... وفجأة بدأ رجل يتحدث بصوت عالي وبلغة أجنبية فقلت في نفسي لقد سمعت هذه اللغة من قبل أعتقد بأنها الإسبانية، ليجلس الرجل بجانبي وكان يرتدي كمامة فقلت في نفسي: هل يعقل أن يكون ستيف؟ ولكن كيف له أن يغير ملابسه بهذه السرعة، وبينما أنا منشغل في حيرتي قال لي: إذا يا مراد ما هو شعورك وأنت عائد إلى الوطن؟ صدمت ونظرت إليه وقلت: هل

أنت ستيف؟ فرد عليا: بشحمه ولحمه... بدأت بالصراخ: كنت أعلم بأنك ترغب في العودة، ولكن لماذا لم تخبرني؟ قاطعني قائلا: أردت أن أرى كيف ستكون الصدمة على وجهك وكان شكلك فعلا مضحك... وقاطعتنا المضيفة وقالت: أنتم تزعجون الركاب، فبقينا ننظر إلى بعضنا ونبتسم.

وما هي إلا ساعات حتى حطت الطائرة على مطار هواري بومدين الدولي كنت فرحا جدا نزلت راكضا وسجدت لله رب العالمين سجدة شكر وكذلك فعل ستيف نفس الشيء... وقال لي: وأخيرا نحن في الوطن دعني أتنفس أوكسجين بلادي، فقلت له: تنفس ولكنك بعد اليوم لست ستيف سنجد لك اسما عربيا جميلا يليق بك، فنظر إلي وقال: يا لك من ذكي يا أخي الصغير، بالطبع لدي اسم عربي فأنا جزائري هل نسيت؟ فقلت له مازحا: أحقا ظننتك إسباني؟ وأكملت قولي بالطبع أنت جزائري، والآن أخبرني ما هو اسمك؟ فقال لي: اسمي مصطفى، صدمت حقا وقلت له على عجل وبتوتر هل اسم والدتك نورية؟ فقال لي مستغربا: وكيف تعرف اسم أمي أتعرفها؟ وبدأت أضحك بشكل هستيري لدرجة أن مصطفى ظن بأنني قد جننت فقلت له والدموع تملأ عيناي: نعم

إنها الخالة التي لطالما جلست معها لتنتظر عودة ابنها... بدأ مصطفى بالبكاء وعانقني وقال لي: خذني إلى أمي يا أخي لقد اشتقت لها.

صعدنا على الفور على متن طائرة متجهة نحو ولاية عنابة، كان مصطفى طوال الرحلة يسألني عن حال والدته وهل كانت بخير؟ وكنت أطمئنه بأنها بخير... بعد مدة قصيرة وصلنا إلى عنابة وأوقفنا سيارة أجرة واتجهنا نحو الحي الذي نسكن فيه، كان يوم السبت وكالعادة كان كل شيء كما تركته الناس مجتمعون والسوق مكتظ رآني أحد الجيران وقال: ما هذه الغيبة يا مراد؟ أين كنت؟ فقلت له إنها قصة طويلة، وأنا مستعجل سنتحدث لاحقا... وركضت أنا ومصطفى تجاه البحر وطلبت من مصطفى الإختباء وذهبت تجاه خالتي نورية، وقلت لها: مرحبا خالتي نورية نظرت لي نظرة كلها حب وقالت: مراد أين كنت طوال هذه الفترة؟ لقد سألت عنك الناس ورجحوا بأنك قد هاجرت... فقلت لها وأنا أبتسم: نعم هاجرت، فقالت وعلامة الحيرة بادية على وجهها: أحقا؟ فقلت لها مبتسما خالتي نورية عندي لك مفاجئة... وقالت لي وهي تنظر لي بعطف: ماذا هل ستدعوني إلى إحدى

مطاعم الشواء؟ فقلت لها والابتسامة تعلو وجهي: كلا المفاجئة هذه المرة ليس وجبة لقد أصبح لدي أخ وأريد أن أعرفك به، اعتدلت خالتي نورية في جلستها وقالت محظوظ من لديه أخ في هذه الدنيا فالأخوة سند وأساس... ولم أستطع تمالك نفسي كثيرا وقلت بصوت عالي يا مصطفى تعال والدتك بإنتظارك، وظهر مصطفى من خلف تلك الصخرة الكبيرة ولم تعد قدماه تحملانه من شدة البكاء وأما خالتي نورية فكانت تنظر له تارة وتارة أخرى تنظر لي وتقول: هل حقا ما تقوله؟ هل عاد صغيري؟ وبدأت بالبكاء بشدة وهي تردد عاد مصطفى اللهم لك الحمد، وكانت ترتجف من شدة الصدمة والفرحة فأمسكت بيدها وأخذتها إلى مصطفى وبدأت بعناقه وتقبيله في كل مكان في جسده وكأنها تريد إطفاء لهيب الشوق الذي أحرقها لسنوات ولمصطفى رأي آخر فقد كان معانقا لوالدته وممسكا لها وكأنه خائف إن أفلت يدها سيخسرها مجددا...

لم أتوقف عن البكاء لأنني كنت أعلم ما عاشته خالتي نورية من شوقها لمصطفى، فقلت لها ممازحا: أعتقد أن رسالتك قد أوصلها البحر لمصطفى ولهذا أتى أخيرا لرؤيتك، وفي لحظات تجمع

الناس من حولنا وعرفوا بأن الغائب قد عاد وشاركوا خالتي نورية فرحتها وقالوا بأنها معجزة... والخالة نورية كانت في صدمة تنظر إليه مرة وتقبله مرة أخرى وثم قام مصطفى بسحبي نحوهما وقال لها: إن أخي مراد كان السبب في عودتي، أمي أنا أعتذر جدا لأنني تركتك لقد كنت غبيا جدا حينها أعدك بأنني لن أفعلها مجددا، عانقتنا الخالة نورية وقالت من الآن إبني مراد سيراقب أخاه الأكبر مصطفى ولن يتركه أبدا أليس كذلك يا مراد؟ أجبتها: بلى يا أمي لن أترك أخي مصطفى لوحده أبدا ولأول مرة أقول كلمة أمي كان شعوري غريبا ولكنني أحببته...

وبعد مرور شهران... كالعادة لطالما كنت أنا من يستيقظ باكرا ويبقى مصطفى نائما، ذهبت بإتجاه أمي وجدتها حضرت الخبز لتقوم ببيعه ولكنني قلت لها: لا يا أمي من الآن وصاعدا سنفتتح أنا وأخي محلا ولن نتعبك بعد الان نظرت لي والدتي وقبلت جبيني وقالت: حسنا أنتما رجال البيت سأترك العمل عليكما والآن حان الوقت لأرتاح قليلا، وقلت لها مبتسما: وأيضا علينا تزويج مصطفى لقد أصبح عجوزا... وفي هذه الأثناء جاء مصطفى متثاقلا وقال: لقد سمعتك أنت العجوز ولست أنا، كما أنني أرى

بأنكم كونتم حلفا ضدي، انتظروا حتى تأتي أختي نور لنصبح فريقا قويا ضدكم... ثم قاطعته أمي قائلة: أختك نور هي أول واحدة ترغب في أن تراك عريسا، ضحكت على مصطفى وقلت: أرى أن فريقك قد انفصل قبل أن يتأسس قاطعنا مصطفى قائلا: بالمناسبة من قال لكم بأنني رافض للأمر ....

وأخيرا أصبحت لدي عائلة لم أنسى يوما النصيحة التي تركها لي أبي بأن أصنع سعادتي الخاصة بنفسي، وسعادتي كانت بأن تصبح لدي عائلة وسأسعى جاهدا للحفاظ عليهم. وأنتم أيضا اجتهدوا لتصنعوا سعادتكم فلا شيء يأتي من العدم كل ما عليكم فعله هو الانطلاق نحو العمل لا نحو قوارب الموت صحيح أنني ومصطفى كنا محظوظين وتلقينا المساعدة من أناس آخرين ولكن يجب ألا نعلق آمالنا على الحظ لهذا نصيحة أخوية حافظوا على حياتكم وسعادة من تحبون وبالأخص الأمهات.